

بين المادية الجدلية والانتقائية المادية

بِقلم محمد عياني

رأى الدكتور
محمد النويهي

في هذا المجال لتكون دراسته علمية حقا ، تأتي باسهام في جلاء نقطة او نقاط غامضة من تاريخنا الادبي والثقافي والحضاري القديم ، هو « المادية التاريخية » ، لا المادية الجدلية ، باطلاق . ان المادية الجدلية تتضمن المبادئ الابيستولوجية المعرفية والنهائية الاساسية العامة للنظرية الماركسية . والدكتور النويهي سماها ، على كل حال ، في دراسته ولم نجد لها اثرا كبيرا في التطبيق لديه . هناك جانب من المادية الجدلية خاص بعلم تاريخ المجتمعات وحركة سيرها وتطورها ، كان يحسن بالدكتور ان يهتدي اليه ، ويستخدمه لاضاءة جانب من موضوعه الخطير والشديد التعقيد والكبير الاهمية . هذا الجانب ، كما سبق القول ، هو « المادية التاريخية » او « المفهوم المادي للتاريخ » . وكون الدكتور لم يخطر في باله لا ان يستخدم مقولات « المادية التاريخية » ولا ان يسميها مجرد تسمية عبر دراسته المسهبة ، هو دليل على ان امامه بالمنهج المادي الجدلي ، اجمالا ، وتفرعاته الاساسية لا يعادل حبه للحقيقة ، وغيرته على المعرفة . اقول : ان « المادية التاريخية » كان بمقدورها ان تخدم الدكتور في بناء دراسته وقيادة ابحاثه ، واضاءة قسم من موضوعاته ، التي لا بد من الاعتراف له بأنه يمتلك فيها ولها كثيرا من المعطيات - ولو كانت تقتصر على الجانب الشعري - على التناقض والرجز ، وحدها ، لكنها معطيات نوعية (Spécifiques) مختصة تدخل في صميم الموضوع المطروح للبحث . قلت : اضاءة قسم فقط من موضوع دراسته لان الشطر الرئيسي في المادية الجدلية عامة ، مطبقا على هذا الموضوع ، هو من اختصاص علم الاجتماع الماركسي ، وعلم التاريخ ، والاناسية (X) (الانثروبولوجيا) وعلم الجمال (الاستايق) والنقد الادبي العلمي على اساس الواقعية الاشتراكية ، هذا مع اقراره بكل احترام بشأن الدكتور النويهي اثبت - في مقاله التالي ، التوضيحي - انه يمتلك اساسا فيلولوجيا علميا لبناء هذه الدراسة . لكن فقه اللغة وحده لا يكفي في هذا المجال . انه بعد واحد ، من عدة ابعاد تتطلبها الدراسة التي اراد الدكتور القيام بها : دراسة حركة تطور المجتمع العربي الاسلامي في صدر الاسلام والعصر الاموي ، وصراع البداوة والقبلية الجاهلية ضد قيم ومبادئ الحضارة الاسلامية الناهضة . تلك هي

اود ان اقول بعض الكلمات عن الفصل الممتع ، الفني بالفوائد الادبية والتاريخية ، الذي عقده الناقد الكبير الدكتور محمد النويهي في العدد الماضي من « الآداب » ردا على رأيي في شطر من محاضراته « الشعر والحضارة » . واريد ، اولا ، ان اشكر بامتنان الكاتب الصديق - اجل ، لقد انعقدت لي معه صداقة في وجداني اثر قراءتي لدراسته المسهبة ، على مدى عشر صفحات من « الآداب » بالحرف الصغير ، مع ان الدكتور النويهي تناول آرائني بكثير من النقد المرير ، واطال الحوار الصارم ، وصال وجال ، عن معرفة وثيقة ، في ساحة موضوع اعترف ، انا من جهتي ، بأنني لست مختصا فيه ، تكنني مثل آلاف من المثقفين العرب لست غريبا عنه تماما ، هذا وان رأيي الوارد في تعليقي من جملة استعراض ابحاث احد اعداد « الآداب » الماضية ، لم يكن عن الابعاد الجديدة التي اضافها الدكتور مستكملا آراءه بصدد دور سوق « المرید » القديم ، وما كان يجري فيه من صراع بين قوى البداوة القبلية ، والحضارة الاسلامية ، في مجتمع صدر الاسلام . وبدبهي انني حكمت على ما قرأته في القسم المنشور ، لا على الافكار التي كانت ما تزال في رأس الدكتور او على بطاقات فيشه . الا ان الروح الودية الاخوية التي اضافها الدكتور النويهي على دراسته السجالية ، دون ان يتخلل عن اي من آرائه او اخطائه ، كما اعتقد ، تدعوني بادية بدو لوجه اليه شكري الجزيل . ثم استأنف الحوار معه .

الدكتور يريد ان ينطلق من مواقع المادية الجدلية ، كما يقول ، في الدراسة النقدية والتاريخية للمسائل التي يعالجها من تاريخ ادبنا العربي ، وماضيها الثقافي والحضاري . وهذا امر يسر ، طبعا ، شخصا مثلي يريد هو ايضا ان يحمل باخلاص راية المادية الجدلية ، وهي الطريقة العلمية الاساسية - والوحيدة - الصالحة لدراسة حركة الطبيعة والمجتمع والفكر وتأسيس نضال انساني على اساسها لتفسير حياة الانسان نحو الافضل . ان ثناء الدكتور النويهي على النظرية المادية الجدلية هو تقييم ايجابي من ناقد عربي كبير ، ودليل على قوة جاذبية هذه النظرية العلمية . ولكن ارجو ان يسمح لي الدكتور النويهي بلفت نظره الى ان الجانب الحقيقي من النظرية او المنهج ، الذي كان ينبغي ان يلجأ اليه في تطوير موضوعه وصياغته على نحو علمي لا على نحو انتقائي ، نوادري ، يقوم خاصة واساسا على الاستشهاد بمتفرقات من الاحكام الشنينة والابيات الماخوذة ، اغتباطا ، من هنا وهناك ، من ادب صدر الاسلام ، والمعقود الاولي من حياة الخلافة الاموية ، اقول : ان الجانب الذي كان مخولا ان يخدم الدكتور

(X) الاناسة (Anthropologie) هو المصطلح الذي اعتمده قاموس « المنهل » للدلالة على العلم الذي يبحث في اصل الجنس البشري وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته . (٠٤ . ٠٤)

موضوعه ، ولا يمكن لهذه الموضوعة الخطيرة ان تنحصر ضمن نطاق الادب وحده ، فضلا عن بضعة آيات من الرجز او النفاض . لعل الدكتور النوبهي يوجه هنا سؤالاً : ولماذا لا يكفي علم الفقه وتنسيق النصوص ومقابلتها وتفسيرها وتحليلها واستنباطها واستنطاقها في هذا الصدد ، علماً بان هذه النصوص تعالج صميم الموضوع - « التمسك بالقبيلة ضد روح الحضارة » ؟ الجواب واضح وهو : ان الدكتور لا يريد الوصول الى استنتاجات ادبية فقط من وراء حشده كل تلك العدة الوثائقية والنصوصية الشعرية ، والمستمدة خصوصا من مدرستي النفاض والرجاز ، بل هو يقصد اضاءة قضية اجتماعية يدفعه طموحه الى تسميتها « حضارية » . وهنا لا بد ان نعجز بضعة آيات ، بسبل وكل دواوين شعراء تلك الحقبة ، عن خدمة الباحث المحترم في قيادة عمله . كانت تترجمه وسائل اخرى ، وعدة ثانية ، هي بالضبط تلك التي يدل بها عليّ ، وبلغت نظري اتي نواقصي فيها - وعلى كل حال ، لا يوجد باحث مكتمل العدة في هذا المجال ، توجد درجات من الاستعداد والكفاءة واستيعاب الطريقة وصياغة المواد ، ومعرفة استخدامهما للوصول الى الهدف المقصود . ولكن ليسمع ني اندكور بالقول ان النواقص والاختلاف التي يوردها ناسبا اياها لي ولسواي من نقساذ ماديين جدليين لم يسمهم الدكتور لكنه حاول جلدي - حيا طبعاً - نيابة عنهم ، هي نواقص واطوار وهمية وغير صحيحة ، وعلى شيء من السذاجة ، في بعضها . مثلاً تبييه تي بانني اجمد عند مرحلة سابقة من الواقعية الاشتراكية والمنهج الماركسي ، وانني اردد شعارات فارغة تجاوزها الزمن ، وذلك بصدد فولي : ان نصائح الدكتور النوبهي التقريرية للشعراء الجدد ورؤيته لجمل نجارب الشعر الجديد لم يكن فيها كبير غنى ولا شيء جديد . الدكتور يقول ان ثمة تحولاً لسدى الشعراء العرب المجددين ، من الاحاسيس الجماعية بصفتهم اغضاء في شعبيهم الثائر ، الى الدوائر الحميمة الفردية من طرح مشكلات الوجدان . وللتدليل على هذه الموضوعة وتعزيز موقفه يستشهد الدكتور النوبهي بأقوال ادباء سوفياتيين اصدقاء زاروا بيروت منذ اسابيع ونشرت « الآداب » عرضاً للمقالات الادبية والفكرية مع الكتاب اللبانيين . ويقول الدكتور ان آراء الاصدقاء السوفياتيين تؤيد آراءه وتدحض تفكيري . وانني جمدت بالتأكيد عند مرحلة معينة ماضية ، من تطور الواقعية الاشتراكية . وانني ما زلت اردد شعارات جماهيرية فارغة ، في حين ان الادباء السوفيات قالوا ان الشعراء السوفياتي قد اخذ منذ حين يتحول من النزعة الجماهيرية الجرائدية الى التعبير عن الوجدانية الفردية الحميمة لدى الاشخاص . فاقول للدكتور محمد : بصرف النظر عن هذه الظاهرة ، فان حكمه عليّ بهذا النحو يدل على انه لم يقرأ جيداً كيفية نقدي لابيحات زملائه في العدد التالي من « الآداب » بعد نشر مقاله « الشعر والحضارة » . ارجو ان يقرأ مثلاً مقرة « يوسف ادريس .. الى اين ؟ » حيث ناقش آراء الاستاذ احمد محمد عطية حول تطور ادب الدكتور يوسف ادريس وتفسير هذا الادب ايدولوجيا ، كما ارجو ان يكون الدكتور النوبهي قد قرأ ردي على الاستاذ ابراهيم الجراي في العدد الماضي من « الآداب » . وعلى كل حال ، وبصدد الموضوع الذي يثيره الدكتور النوبهي ، بتحديد ، وعن غير حق ، اود ان اخبره بان ظاهرة هذا التحول في الادب السوفياتي ، وهي ظاهرة جزئية ، على كل حال ، ويجب تقييمها بكثير من الاحتراس نظراً لاتساع وتعدد ابداعات الادب السوفياتي واختلاف مستوياتها وتعقدها وكبير غناها ، اقول ان ظاهرة التحول هذه لم تكن خافية عليّ ، حتى قبل زمن طويل من مجيء الكتاب السوفياتيين الاصدقاء كامل ياشين وسفرونوف ورفاقهما الى بيروت . والحديث الذي يستشهد به الدكتور سمعناه من افواه الاصدقاء السوفيات وجرى نقاش حوته وحول سواه من قضايا الادب الراهنة . لكن المشكلة هي ان كثيراً من الكتاب العرب لا سبيل لهم للاطلاع الوافي على اعمال بعضهم البعض . وبصراحة ، فلولا مجلة « الآداب » ربما ، ما كنت سمعت بنقاد كبير يدعى محمد النوبهي

فضلاً عن القراءة له ، والافادة من جهده اقيم المتواصل . انني اكتب عادة في جرائد التقدميين اللبنانيين ومجلاتهم . وحين اصدرت مجلة « الطريق » اللبنانية عدداً خاصاً بمناسبة مرور خمسين عاماً على قيام ثورة اكتوبر ، كان نصيبي اعطاء صورة عن نشوء وتطور الادب السوفياتي عبر نصف القرن هذا من عمر بلاد السوفيات . وفي احدي فقرات دراستي في هذا الصدد ، المنشورة في مجلة « الطريق » المذكورة (العدد الرابع ، تشرين الثاني - كانون الاول ١٩٦٧) ورد ما يلي حرفياً : (ان صيغة بول ايلوار : « من افق الشخص الواحد الى افق الجميع » هي صيغة معروفة . ان الادب السوفياتي ، بعد المؤتمر العشرين ، يعكس هذه الصيغة الآن ، اذا صح التعبير . فالاعمال الادبية التي صدرت في الآونة الاخيرة تسري فيها ارادة التغلغل الى كل بيت ودخل كل روح ، والشعور بالمسؤولية بالنسبة للحياة ككل شخص يطرح مسألة ما يقدمه افق الجميع لافق كل شخص . الان الاهتمام ، في الروايات السوفياتية الصادرة منذ عشر سنوات ، قد تركّز ، ليس على رؤساء الجماعات والشخصيات البارزة ، بل على جنود الثورة البسطاء ، على اولئك الذين كانوا يعتبرون اثناء فترة « عبادة الشخصية » ، اشياء التاريخ واغراضه . لقد ازلت حقائق الحياة الانقطاع الذي احدث بصورة مفتعلة اثناء تلك الفترة بين افراد الجمهور و « الشخصيات العظيمة ») الخ الخ .. من هذه الفقرة ، وامثالها من الفقرات في دراستي المذكورة ، انني استغرقت زهاء عشرين صفحة من مجلة « الطريق » يتضح للدكتور النوبهي اني حاولت ان لا اجمد عند مرحلة معينة من تطورات الواقعية الاشتراكية . بل اكثر من ذلك ، فقد كنت منذ سنين ارسد القيم الهامة الادبائية في الانتاج الادبي والفكري السوفياتي وانقلها الى اللغة العربية ، وفيها كثير مما تنبئه اليه مؤخرًا الدكتور النوبهي واعتبره ظاهرة جديدة - اعتماداً على آراء الادباء السوفياتيين الاصدقاء ، الذين زارونا في بيروت - اذكر على سبيل المثال ، فضلاً عن عشرات وربما مئات المترجمات الجيدة ، والتي ليست كلها دعائية ولا خطابية ، اهتمامي بنشر بعض اعمال فستونطين باوستوفسكي ، وهو ذو اسلوب قصصي صميم جدا ، وخاص جدا ، شاعري ، وحساس وملهم ، يمزج ما بين رومنطيقية عميقة الالوان وملحمية مستجئة ضمن لمسات تبدو بسيطة لاول وهلة ، ولكن تتكون منها لوحة كبيرة من مصائر ابطال ، وملاحم بناء وبطولة ، ونمزج اقدار وصراع ، كل ذلك يروى بنصف نون ، ونصف لمسة وايماءة ، على طريقة ناتالي ساروت فسي فرنسا ، ورسوم الانطباعيين . وادب باوستوفسكي ابعث الاشياء عن الخطابة والضحج او الدعاية السافرة او المبطنة . ان اجمل دعاية لدى باوستوفسكي للواقع السوفياتي الجديد هو ما يكشفه فيه من جمال وقيم جديدة . انه يصور الحياة بابداع وسحر ورؤية مدهشة في طرفتها وطابعها الشخصي . وقد اصدرت « دار الشرق » في القاهرة مجموعة قصصية ممتازة لهذا الكاتب السوفياتي العظيم ، كما ان الدكتور النوبهي لا بد انه يعرف هذا الكاتب اذا كان يتابع مجلة « الادب السوفياتي » Ouvre et opinions باللغة الانكليزية ، او باللغة الفرنسية .

ولكن يجب القول ان وجود ظاهرة تحول من الطابع الجماعي الصارخ او المشدد على الاقل ، في الادب السوفياتي ، الى الطابع الشخصي الفردي الحميم ، وطرح مشكلات الفرد امام الكون والمصير ، ان وجود هذه الظاهرة التحولية في انتاج الادباء السوفيات اليوم ، لا يمكن ان يعني بالضرورة ان ذلك هو بالضبط ما يحدث عندنا . وأعيد الدكتور النوبهي ، من اعتماد هذه الآلية في القياس واستنباط الاحكام ، مع ان هذا هو بالضبط ما فعله ، وأسفاه !

هناك نقطة ثانية ، يقول الدكتور محمد النوبهي انني جهدت عندها

- التمه على الصفحة - ٦٧ -

رد على الدكتور محمد النوبهي

تتمه المنشور على الصفحة - ١٣ -

وهي فهمي - أو جهود فهمي - لموقف المادية الجدلية الراهنة من الدين . ويشير النوبهي الى ان عددا متزايدا من المفكرين الماركسيين الاجانب انفسهم يحاولون ان يقبلوا - كما يقول الدكتور حرفيا - : « على ظاهرة الدين اقبالا جديدا وان يعقدوا معها المصالحة في سبيل تحقيق ما تنسده الانسانية من تجديد الفكر وتغيير الاوضاع والفرار السلام العالمي واسعاد ابناء البشرية في حياتهم الدنيوية » . ويتساءل الدكتور : انيس الاجدر بنا ، نحن العرب المسلمين ، ان نحتذي حذو اولئك المفكرين الماركسيين الاجانب ، لا سيما ونحن اكثر حاجة من بلدانهم (الى التآزر والتصافي ونيدا ما يفرق واعتماد ما يجمع ؟) . واريد ان الفت نظر الدكتور الى ان فهمه لهذه الظاهرة ليس دقيقا - وليسمح لي بهذا التاكيد ، وبهذه الصسورة - فروجيه غارودي والمفكرون الماركسيون الفرنسيون والاطاليون الذين ربما كان الدكتور النوبهي يعينهم ، لم يكونوا يقومون ب « مصالحة مع ظاهرة التديس في سبيل ... الخ » ، بل فقد افاموا حوارا معها ، اي نقاشا كان يشتد الى درجة النقد الجذري العنيف احيانا . هذا فضلا عن ان اولئك المفكرين الماركسيين كان قد سبق لهم ان اصدموا كتابا انتقادية جذرية وعنيفة ضد الكنيسة الكاثوليكية واشتركوا في مساجلات حادة ضد منتقديهم الكهنة والعلماء الكاثوليك الخ ... وهذا شيء ما زال تحقيقه حتى الآن غير ممكن ، كما ينبغي ، وبلا لاسف ، في بلداننا العربية . لا اقول ذلك لانني اجد لذة خاصة في انتقاد الدين والتعرض لقيمه واوضاعه والفيهمين عليه ، الاجلاء . بل اقول ذلك لافور واقعا ، مخاطبا رجلا كالدكتور النوبهي يقول انه ستفيد من المنهج المساوي الجدلي ويرى ان هذا المنهج قد اثبت صحته . وانكلم بصراحة وبسدي على ضميري فاقول : اولا ، اني اتحدث هنا باسمي الشخصي ، رغم انتسابي الى الحركة التقدمية اللبنانية . اوضح هذا لان جميع الحركات التقدمية العربية القائمة على اساس المادية الجدلية - في الوطن العربي - بما فيها حركتنا اللبنانية - تتخذ موقفا واضحا صارما وثابنا في هذا المجال وهو منع طرح مسألة الدين اصلا ، لا سيما في الاتجاه السلبي الانتقادي . بل بالعكس ، فهي تقول وتعمل على اساس انه يجب كسب التديس الى صفوف النضال الثوري بطرح القضايا الاجتماعية النضالية المصيرية امامهم . هذا فضلا عن ايفاح الحركات التقدمية دائما لاعضائها ان موقف الدين الاسلامي ورجاله من فضايا النضال التحرري العربي يختلف لصالح الاسلام عن مواقف بعض مؤسسات الكهنوت ورجال الدين الغربيين من قضايا شعوبهم وفتاتها الكادحة ضحية الاستثمار والاستلاب . وعلى كل حال ، ليست عندنا ، والحمد لله ، مؤسسات اسلامية كهنوية تملك اسداس او اربساع مجموع الثروات والاراضي في بلدانها ، كما هي حال بعض الكهنوت في البلدان الراسمالية . ورجال الدين المسلمون بصفتهم جزءا من جماهير البورجوازية الصغيرة بل والطبقات البروليتارية ، يشاركون في كثير من الاحيان في حركة النضال التحرري . ومثال السسورة الجزائرية ، بداية واستمرارا ، خير دليل على ذلك .

اذن ، ان موقف الحركات الماركسية الرسمية في البلدان العربية هو : لا تدخل في مسألة الدين . موقف اجنابي بصورة عامة في هذه القضية . وهنا لا بد وان يتساءل الدكتور النوبهي مكررا اسئلته العديدة ، الساذجة والطريفة ، التحريفية ، والمفعمة بطيبة القلب ، في وقت معا ، الواردة في مقاله الماضي ، موضوع النقاش : اذن لماذا نغمز هكذا من قناة الدين ، قائلا ان « العرب هم الذين ابدعوا الاسلام ، جماهير قبائلهم وحضرهم » ؟ فاقول للدكتور النوبهي ، اني مع كوني انتسب الى الحركة التقدمية اللبنانية ، القائمة على اساس المادية الجدلية ، فاني احس بان للحركة نقعة في لدى معالجتني أي موضوع

مهما كان حساسا . لاننا نثق عن تجربته ضويلة بما احاوله من اخلاص ورغبة في خدمة الشعب وحركة تحرره . لذلك اريد ان اوضح للدكتور النوبهي نقطتين اساسيتين في صدد ما كتبه وفي صدد مفهومي لمسألة الدين في البلدان العربية وموقف النقد العلمي منها . اولا ، انا عانبت كثيرا على الدكتور النوبهي لطريقته في توسيع كلمتي ، وتضخيم حبتها وكأنها يريد ان يجعل منها فية ، ثم الاستطراد طوال صفحة ونصف صفحة من « الآداب » لمحاكمتي على كلماتي العابرة في هذا الصدد ، وكأنني امام محكمة مؤلفة من غلاة المتديس المتحيزين . واكبر ما اسفره في هذا الصدد هو حساسية الدكتور الشديدة بهذا الخصوص مع انه يقول انه يتبنى المادية الجدلية - في شكلها المنظور ، حسب آخر طراز ! - والمادية الجدلية تقول بدراسة جميع الظواهر الاجتماعية وتقديم حقائقها الى الشعب ، الى « الجماهير » - هذه الكلمة التي يبدو ان « المادي الجدلي » الدكتور النوبهي لا يعيها كثيرا . واريد ان اقول للدكتور النوبهي وامثاله من الدارسين العرب ذوي القدرات التي لا تنكر : لقد آن الاوان للقيام بعملية نقد جذرية لهذا البعد من ابعاد تراثنا - الدين - واستخراج البذور الاجنبية فيه ، وهي عديدة ، واستخدامها في حركة تقدمنا الثورية الاجتماعية ، واستبعاد الجوانب البالية التي تدعو حياة هذا العصر الى الخلاص من تعفنها . ذلك لا ينبغي ان يكون فقط الموقف المادي الجدلي ، بل لقد اصبح فعلا هو موقف الراديكاليين الليبراليين في المجتمع العربي . لكنني في معرض تعليقي على محاضرة الدكتور النوبهي لم اقصص الطرق ، بالتاكيد ، الى مسألة الاسلام والدين الخ ، بل لقد التقيت مصادفة ببعض عبارات الدكتور المكوبة فعلا بأسلوب بدا لي مثاليا ، غيبيا ، مقلوبا على رأسه ، ويسيء الى مجهل دراسة الدكتور النوبهي ، فحاولت تقويمه جهدا استطاعتي .

اما اذا كان الدكتور يضر على انه يتبنى المنهج المادي الجدلي ، لكنه في نفس الوقت لا يستطيع ان يقبل كلمة واحدة تخالف معتقداته الفيبية ، فهذه معضلة ثقافية واجتماعية يجب ان يجهد الدكتور - واريد هنا ان ابادله نصحا بنصح ، لانه وجه الينا ، انا واصدقائي النقاد الماركسيين كثيرا من اتصائح - يجب ان يجهد للخلاص منها . على كل حال ، كما قال الدكتور في بدء معالجتة نهذه النقطة ، فانها ليست مهمة . وانا بكل اخلاص لا ارى كبير اهمية ، في الوقت الحاضر على الاقل ، لتحقيق تلك العملية الانتقادية التي لا بد وان نجسري يوما ما ، نظريا وعلى الورق ، لان المجتمع العربي ، في شطر كبير منه ، حققها فعليا وعلى ارض الواقع . ان بعض المظاهر السلبية في المجتمعات العربية الراهنة ، تمنع النوبهي من ان يرى خط الثورة الكبير .

واريد ان اخالف الدكتور النوبهي تماما في قوله ان الجماهير الاسلامية ، منذ بدء الدعوة حتى انتشارها الواسع ، لم تلعب دورا اساسيا في انتصارها . وكذلك في دعواه بان العصبية القبلية ظلت تسيطر كليا على المجتمع العربي ، وانها كانت هي السمة البارزة من سماته . كذلك اريد ان اخالفة في رأيه بصدد حدود الطريقة المادية الجدلية،وقوله ان ميدان هذه الطريقة يجب ان يقتصر على موضوعات محددة ، لا يتعداها . كما اخالفة في رأيه بالجانب الشعري الافضل عند المتنبي ، ثم في مدى اهمية ابيات الرجز ونقف القصائد التي قدمها كي يثبت تمسك العرب بعصبيتهم حتى وهم يعيشون في صميم الحياة الحضرية . مع العلم ان لكل شاعر تقريبا من الرجاز او شعراء النفاض الذين استشهد الدكتور بهم قصائد اخرى مفعمة بالاحساس الحضاري الاسلامي الجديد .

واخيرا ، اريد التعليق بكلمة صغيرة على قول الدكتور ان المادية الجدلية منهج لا مذهب .

لو استخدم الدكتور المنظار الكلي ، وتم يسمح لنفسه بان يضيع في تفاصيل الفصون بحيث خفي عنه منظر الغابة بكاملها ، لسرى بأوضح صورة ان الحركة الاسلامية انبثقت من اعقق اعماق الجماهير .

وإن إكس ألعنات التي انضمت اليها وكانت هي دعائها وقوبهها الرئيسية ، هي السواد الكبير الياس من عرب مكة والمدية اولا ثم سائر المدن والقرى والقبائل العربية . هذه حقائق معروفة وليست بحاجة الى برهان . ان الدكتور يؤمن بفكرة مثاليه ، « كارليليه » ادا صح المعيار ، او « نيتسويه » ، اي انه يعتقد جازما ، وقد كتب ذلك مرارا حول رده موضوع بنذا العنفس ، ان نخبة مومته قليله من استخصيات المفوضه هي التي اسمرت نصر الاسلام وناضل من اجله في اعمان الجماهير حتى اسمرت الدعوة . هذه فكرة فصلا عن حصص التاريخي ، نلمس ، في حلالها السيئه ، النازيه (ارسطراطي ، النخبه و « الاسود السفر ») . وهي في حلالها الاقل سوا ، عبارة عن اوهام ضوياويه وجاهل لمنسا هذه النخبه الاسلاميه ايطليعيه ، اي النبي وصحابته تم جهرة المسلمين بعد ذلك . اجل . اسأل الدكتور النوبيه : من اين جاءت تلك النخبه المؤمنة التي دعمت النبي العربي ، عند بدء كفاحه ، واستمرت معه حتى « جاء نصر الله والفتح ورايت الناس يدخلون في دين الله افواجا » ؟ هل هي تلك النخبه من السماء هي ايضا ، مع الوحي ، بين ثانيا اجنحة جيريل الامين ؟ وسؤال اخر اكثر اهمية : كيف يتجاهل الدكتور عشرات الاف من المسلمين الذين خرجوا من شبه جزيرتهم ، على جياذ الدعوة والفتح ، لينشروا الاسلام في ارجاء ما اصبحت يشكل بعد ذلك بلاد الخلافة الاسلاميه ، واطار الوطن العربي ؟ جماهير المحاربين والمعمرين والمحدثين العرب هؤلاء ، كيف يتجاهلهم الدكتور النوبيه ؟ الحقيقه هي ان هناك نظرة منهجية ، لدى الدكتور ، مضادة ، ان لم نعل معاديه للجماهير . ونبييهه - الذي لا يستطيع البرهنة عليه - الى ان الطابع الفردي الحميم واسئلة انفراد امام الكون ، هو النصر اندي اصبحت يسود الفصيده العربية الجديدة ، وانسه ليس صحيحا ان نيارا توريسا اجتماعيا ينتشر ندى الشعراء العرب المجددين (دائما الدكتور يفهم التيار الشعري الثوري ، على انه يعني الشعر الخطابي بانصرورة .) انما هو مستمد من نظرة منهجية ، رأيناها تتجلى مرة ثانية في انكاره دور الجماهير الاسلاميه في حمل الاسلام وزيادة توسيع رفعه ونسره خارج الجزيرة العربية .

واليكم تنمة رأي الدكتور، بنصه الحرفي (بل الحقيقه هي ان الاستاذ عيناني لا يزال يخضع لنظرة تفديسيه مسرفة الى الجماهير وهي نظرة استبقاها من عهد الشعارات الرنانه والادعاءات الديماغوجيه التي كانت الماركسيه مضطرة اليها في اول ظهورها حتى تستميل اليها القوى الجماهيريه في محاولتها ان تحركها ضد مستقليها من الاقطاعيين والرأسماليين .

لكننا - والكلام ما زال للدكتور النوبيه - لم نعد بنا اليسوم حاجة ، بعد أن وضع المنهج المادي الجدلي وبيين مدى ما فيه من الصحة التي يسلم بها كل مفكر نزيه وان لم يكن يتبع ذلك المنهج في كل تفاصيله « !!! » .

وهكذا ففي رأي الدكتور ، هذا « المادي الجدلي المنظور » الذي نحول مرارا اناء مقاله موضوع النقاش الي والى سائر النقاد الماركسيين بالنصيحة لكي تكون ديناميكيين منظورين ولا نجمد عند موافق نخطاها التاريخ ، اقول وهكذا فحسب معلومات الدكتور النوبيه فـ « ان الماركسيه في اول ظهورها استخدمت الشعارات الرنانه والادعاءات الديماغوجيه لكي تستميل الجماهير ! » طبعاً ، هذا قول اشبهه بالافتراء ، وقد خلط الدكتور فيه بوضوح بين ماركس من جهة ، ولاسال وبرودون من جهة اخرى ، بين انجلس وبلانكي ، بين لينين وكروبوتكين . بين الماركسيين والفوضويين . ثم انظر كيف يطور الدكتور النوبيه فكرته الطريفة هذه : « والان ، وبعد ان بيين مدى ما في المنهج المادي الجدلي من صحة ، فلم نعد نمة حاجة للشعارات الطنانة » او كما قال . فماذا يعني الدكتور بتراكيبه الفكرية المدهسه هذه : هل

يعني انه بعد أن انضحت صحة المادية الجدلية يجب وقف النضال بين الجماهير ، من اجل توعيتها وتنويرها ؟ هل قرأ الدكتور عن حياة لينين وعن نضاله بين الجماهير وهل اطلع على بعض اعماله ؟ على كل حال ، لماذا تذهب اتى ماركس ولينين : اريد أن اسأل الدكتور النوبيه : اية قوة هي التي انقلت النظام التقدمي في المتحدة ، قاعدة الثورة العربية ، في ٩ حزيران ١٩٦٧ ؟ اهي اهرام الجيزة ، ام حديثها ، ام ناديا جمال ، ام السيد قشطه ، ام الجماهير الشعبية الجرارة ؟

وينبع من هذه الفكرة ، التي اوضحت خطأها ، عند الدكتور النوبيه مقولة اخرى ، اشد خطأ والتاسا حين يقول ان الشعب العربي المسلم ، في العقود الاولى من حياة الخلافة الامويه ، قد خضع لمبدأ « الفعل ورد الفعل » فعادت بعد الفتح جميع فائله وفنائه الى التمسك بحياة البداوة . فهل نستنتج من هذا ، يا دكتور نوبيه ، ان الاسلام ، بعد تلك الظاهرة الارتدادية - المبالغ فيها كثيرا عند الدكتور - جاء وكأنه لم يكن . واين هي الحقيقه ؟

الحقيقه هي ان الدكتور بوضعه المسألة كلها، على اساس اشعار الرجز والنقائض وبعض الصفحات من كتاب الاغانى - لا على اساس المادية التاريخية ، ودراسة العلاقات الاجتماعية الواقعية التي كانت حينئذ في حركة تطويرية ، مؤهبا للصعوبات والانتصارات ، وفترات التقدم والانتكاس . حركة الانهيار النهائي لنظام العبوديه والفتانة ونشور العهد الاقطاعي مع توازن بعدين اساسيين في المجتمع العربي الاسلامي ذلك العهد - البدو والحضر . القبيلة والعمران - ثم اتجاه جانب اساسي هو العمران للانتصار ، في مطالع العصر العباسي . ان تجاهل الدكتور للعلاقات المادية الاساسية ، علاقات العمل والانتاج والعلاقة بالارض وملكيته واستصلاحها وزراعتها والعلاقات التجارية وحجمها بالنسبة لجمل التكوين الاجتماعي القائم والبناء الاقتصادي العامل ، والتراكم الرأسمالي هنا ذو علاقة كبيرة بمسألة التخضر ، او العودة الى القبليه . لكن اعتماد الدكتور النوبيه في دراسته على بيت اشعر - وهو احد الادلة والوثائق ولا شك - لكن تجاهله للسلعة والعمل مفطر في الخطأ : « عادت العصبية القبليه مجددا وباعنف ما كانت عليه في الجاهلية » . هذا خطأ . والا فمن الذي عمر المجتمع الاموي ، ثم المجتمع العباسي الشديد الازدهار - لطبقات العليا والوسطى على الاقل - ؟ اما تسمية الدكتور للحكم العباسي الناهض ، بـ « الثورة الفارسية » ففاية العجب لمن يعرف ولو اشياء قليلة عن حقائق تلك الفترة من التاريخ العربي والاسلامي . ان انهيار الدولة الامويه وقيام الدولة العباسية قد تم نتيجة لتحالف ثلاث قوى رئيسية هي : العباسيون ، وهم كما تعلم يا دكتور ، عرب افحاح ، ينحدرون من بني العباس عم الرسول ، والعلويون - بزعمه ابراهيم بن المهدي - الزعيم العلوي وهم ايضا عرب افحاح لان اكثرهم ينتسب الى الحسين بن علي وابيه رضي الله عنهما ، بالاضافة الى انصارهم العرب . والقوة الثالثة هي الفرس بزعمه ابي مسلم الخراساني وقد استخدمت الدولة العربية الفرس استخداما ، وحين اشتد ساعدهم في أمام هارون الرشيد ، بزعمه جعفر البرمكي واتضح خطرهم على الخلافة العربية ، ضربهم الرشيد كما هو معروف بل لك الضربة العاصفة . المعروفة بـ « نكبة الجرامكة » فالحركة العباسية ليست هي اذن ثورة فارسية يا دكتور نوبيه . وما كان ينبغي لحركة انتهاء الخلافة العباسية ان تنعكس في ذهنك النير على بداياتها .

ومن جهة اخرى يقول الدكتور النوبيه ان هناك نقادا ماركسيين عربا يعتقدون انهم مجرد ان لديهم هذه العدة الماركسيه فانهم يستقنون عن تعميق اختصاصهم ، ويسمحون لانفسهم ، اعتمادا منهم على

وهم أوجده لديهم أنهم «ماركسيون» وهذا يكفيهم زادا وعتادا لكل بحث. يسمحون لأنفسهم بمعالجة مواضيع الموسيقى والفن الريئاسني والمرحبة الاغريقية واصول صنع الطعمية وما هب ودب من موضوعات لا يعرفون عنها شيئا كثيرا ، وكذلك ، فالدكتور يقول ان المنهج المادي الجدلي يجب ان يقتصر على بعض الموضوعات وليس من الضروري ان يعالج او يتمكن من معالجة جميع موضوعات الحياة الانسانية (!!) بالنسبة للنقطة الاولى ، ارى الدكتور على حق احيانا . ولكن كنت اتمنى لو ضرب الامثلة ودعم كلامه بالاسانيد والابنات شانه في الشطر الاول من مقاله . وقد اشار اولا الى نزاهتي وجددي في البحث واخلاصي في ما اكتبه لكنه قال اما في موضوع « المرشد والحضارة والشعر » في العصر الاول الاموي فواضح ان العيتاني ليس له المام كاف في الموضوع . وفي هذا المجال لي الحق ان اعتبر ان الدراجة ذات العجلتين السلميتين افضل من قطار بلا دواليب .. ام لا ؟ هذا في حين ان الدكتور النوبهي يوضح انه يقضى طوال الاعوام يدرس هذا الموضوع مع تلامذته في الجامعة (٥ ساعة تقريبا كل عام ، وان الصفحات القليلة وثلاث صفحات ونصف صفحة من « الاداب » التي نشرت عن هذا الموضوع ، وقمت انا بتقدها هي خلاصة خمسين ساعة من البحث والكلام المتواصل كل عام . ولا ادري كيف يمكن ان يتصور القارئ هذه الخلاصة . ولكن فليقرأها بعنوان « الشعر والحضارة » وليقرأ نقدي لها ، وليحكم بعد ذلك . ومن جهة فقد صح ظنسي ، فالدكتور اعطانا في « الاداب » ما يعطي تلامذته في الجامعة من معلومات . وعلى كل حال اشكره لانه اعترف لنا بانهاثنا مرحلة الدراسة الثانوية !

اما بالنسبة للنقطة الثانية وهي ان الماركسية لا تستطيع الا ان تقتصر على دراسة موضوعات محددة ، فهي فكرة لكسيم رودنسون نشرها في العديد من المجلات ثم اوجزها في مقدمة كتاب عبدالله العروي « الايديولوجية العربية المعاصرة » ، وفكرة النوبهي رودنسون تعود بالماركسية من كونها منهجا الى كونها مذهباً ، وهذا ما يقول النوبهي انه لا يريد .

ومن جهة اخرى ، فلماذا الكلام المجرد ؟ فلنذكر ان الماركسية خاضت جميع ميادين العلوم والمعارف وابدعت فيها : في الاقتصاد والاجتماع ، والتاريخ ، وعلم النفس ، وعلم نفس الطفل ، والفيزياء ، وسائر العلوم الصبوبة ، وفي علم الحياة ، والعلوم الاجتماعية والانسانية ، الخ . واذا كان ثمة بعض التفسير في بعض الميادين فلظروف موضوعية وذاتية على حد سواء . ففي علم الجمال (الاستطيق) السبب الاساسي للتفسير في صياغة نظرية ماركسية جمالية متكاملة حتى الان وعدم وجود مراجع اساسية كلية في هذا الموضوع هو اولا ، الاختلاف الفطري الاساسي بين مفهومى الفن وعلم الجمال في اوربوسا الغربية (بما في ذلك الاوساط الماركسية) ومفهوم الشرق الاشتراكي ، الى حد ما ، والشرق السوفياتي بصورة اهم للعملية الفنية . في اوربوسا الغربية نجد التركيز على الانطلاق في حركة تطويرية جسورة . في جميع ميادين الفنون ، على اسس فردية ذاتية تلبس الف نزعة وشكل ، ويصعب حصرها او مجرد الإشارة اليها بنزعة او مدرسة او اتجاه معين ، والتميق الاختباري هنا يكاد لا يعترف باية ضرورة اجتماعية ، في حين ان الفن في الانتقاد السوفياتي وتنظيره في نهج الواقعية الاشتراكية هما شأنان اجتماعيان واحيانا يكونان من شان الدولة والحزب مباشرة . ثانيا ، واقتصر على هذا السبب الاساسي الثاني - اذ ثمة عدة اسباب ، ذاتية اخرى ، لا مجال لذكرها - هو عدم ظهور قدرات نظرية ابداعية وتركيبية كافية لدى مختلف المنظرين الجماليين الماركسيين ، حتى الافاذ منهم كبلخاتوف ، وتومبسون ، وفيشر ، ولوكاتش ، وغارودي ، واراغون . اما غوركي وبريشت فالتنظيرات التي صاغها كانت هي في الحقيقة رسوما اولية لابداعات الكاتبين العظمين . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، خضوع العمل الفني في الغرب لقانون السوق الراسمالية ، وخضوع الابداعات الفنية وتنظيرها الفكري والجمالي في الشرق

الاشتراكي والسوفياتي لضغوط العهد الستاليني ، في بعض مراحلها ، وقد نخرت الان ، لكنها ما زالت تعاني من اثار تلك الدوغمائية التي كادت تصبح مؤسسة تملك قدرات ذاتية مستقلة على التوالد والبقاء . اما خلاف ذلك ، فالمادية الجدلية منهج يا دكتور نوبهي ، كما نادى انت نفسك والمنهج يعني انه يجب ان يبحث كل شيء وتفحص جميع ميادين النشاطات البشرية ، وجميع ظواهر الطبيعة ، من الذرة حتى اقصى الجرات والافلاك ، ومن الخلية حتى النيل والزرافة مروراً ب « سوق المرشد والحضارة » . وكلمة منهج هنا لا تعني طبعاً منهجاً مدرسياً ، موزعاً على حصص ، ومحدداً بساعات لا يتعداهما ، وموضوعات لا يتجاوزها .

واخيراً ، فقد تطرق الدكتور النوبهي في سياق حديثه عن الطابع الراهن لتجارب الشعراء العرب المجددين ، الى الرد على تساؤلي حول نوعية شعر المتنبي حسب مفايس الدكتور النوبهي . فاكد الدكتور في مقاله المسهب موضوع هذا النقاش على ان اروع شعير المتنبي هو ذلك النوع الساجي العاطفي الحميم ، النابع من تجربة اسي ذاتية شخصية مثل قصيدته « عيد باية حال عدت يا عيد » مع ان التمثل بهذه القصيدة مقامرة نقدية ، اذ ان الطابع السياسي والاجتماعي والصراعي المساوي - وهي اشيء غير العاطفة الساجية الحميمة - واضحة تماما في قصيدة « عيد باية حال » . ربما قال النوبهي ان النبرة العامة للقصيدة هي كما حدد . وهذا صحيح ، لكن المادية الجدلية تنظر الى اية ظاهرة في مجمل تناقضاتها ولا تحصر نظرتها في جانب واحد من جوانب الظاهرة . ورؤية النوبهي للجانب الافضل في شعر المتنبي هي تدجين لشاعرية المتنبي العملاقة ، وذلك شيء مستغرب من ناقد في مثل وزن الدكتور النوبهي وقدرته . اذا ماذا تساوي كل غزليات المتنبي وقصائده الحميمة الساجية اذا قيست بما قدمه ابو الطيب من صور ملحمية خالدة يوهج الفن العظيم لنضالات سيف الدولة الحمداني ومعاركه صدهجمات الروم ، كل ذلك هوغوفا في روائع لن تفيها الادهار ، كقصيدته « على قدر اهل العزم » الخ .

واخيراً لقد كرر الدكتور مرارا على قوله وتنبهه بان الماركسية « منهج وليست مذهباً » . لكنه ، واقولها باخلاص ، لم يطبق هذا المنهج ولا حتى ذلك المذهب في دراسته الاخيرة ، المكرسة للرد على نقدي لبعض افكاره . وما طبقة النوبهي هو ما رآه القراء : خليط من افكار انتقائية لا يجمع بينها سوى العمية فكرية لدى صاحبها ، تستطيع ان تصوغها في بناء متكامل قد يفريك بقوله والاغتنبياء بمضامينه ، ولكن لا يبقى منه شيء كثير عند تحليله على محك النقد الجدلي .

ولا بد لي في الختام من شكر الدكتور محمد النوبهي لاهتمامه ، بما كتبت ، وشدة تدقيقه في العرض والنقد والفحولة والتنخيل والظعن ... فالحقائق تتبع من هذه الطريقة ، ومن اساليب النقاش المائلة . ان اروع ما في دراسة النوبهي السابقة ، موضوع هذا الكلام ، هو ذلك الشرر الفكري . الذي يتحول الى قميص من نار مبدعة يلف سائر مقاطع الدراسة النوبهية وتسري فيها كلها قوى خفية من حوافز الفكر والابداع . ان حماسه النوبهي في الدفاع والبيان والبرهان ، وما يرفده من منطق متوازن مستقيم وعلم غزير وذوق مكمل ، قد اقامت بناء رائع الجمال ، وان كان قائماً على اعمدة نحيلة ، اشبه بقصب « الفزار » . فكيف قام هذا البناء ؟ يجب ان اسأل نفسي واسأل الدكتور النوبهي والقراء . اواد ان انهي كلامي بنصيحة واحدة ، مقابل العديد من النصائح التي سخا بها علينا الدكتور النوبهي ، انا وبعض زملائي النقاد الماركسيين ، هذه النصيحة هي ان يدرس النوبهي الماركسية ، المادية الجدلية والمادية التاريخية ، ونظرية المعرفة الخاصة بهما ، دراسة جدية ، وحينئذ سيرى ان كثيراً من التقديرات التي تواجهه في دراساته ، والتي يحس بها قارئ مقالاته ، ستزول ، مخلفة وراءها حلولاً بالغة الفنى ، وافرة المسائل والقضايا ، هذا ، وانني اكرر تحية الاعجاب والتقدير المخلص والسود الحميم الى

محمد عيتاني

الباحث الصديق .